

التربية الإسلامية - مدارج السالكين - الدرس (١٠١٨-١٠٠) : الإرادة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩١-٠٧-١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

منزلة الإرادة :

أيها الأخوة المؤمنون ؛ مع الدرس السابع عشر من دروس منازل السالكين ، ومنزلة اليوم ، منزلة يحتاجها كل مؤمن إنها :
منزلة الإرادة .



قيمة هذه المنزلة تكمن في أنّ كلّ إنسانٍ أو أنّ كلّ مؤمن ، يتمنى أن يكون أفضل مما هو عليه ، ما الذي يمنعه من أن يكون كما يتمنى ؟ ضعف

هناك مسافة بين ما نحن عليه وما يجب أن نكون عليه

إرادته ، لا أبالغ إذا قلت : إنّ من أخطر الموضوعات المطروحة في مدارج السالكين هذا الموضوع .

يعني : من مينا لا يتمنى أن يكون من أعلى المؤمنين ، من أكملهم إيماناً ، من المتقين ، من المحسنين ، ممن تخلّق بأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ، ممن رزقه الله عملاً صالحاً ، ممن أتقن صلاته ، ممن أنفق ماله في سبيل الله ، ممن دام ذكره ، ممن طهر قلبه ، ممن أقبلت نفسه ، لماذا ؟

لماذا نحن دائماً دون ما نتمنى !!؟

لماذا هناك مسافة بين ما نحن عليه وبين ما يجب أن نكون عليه !!؟

هنا تكمن قيمة هذا الدرس ، إنها الإرادة .

تمهيد :

قبل أن أدخل في تفاصيل هذا الدرس ، مرة كنت أركب مركبة عامة ، في طريقي إلى دمشق ، من المحافظات الشمالية ، لما وصلت إلى شارع العدوي ، الذي قبيل دمشق ، أذكر أنّ الليل في منتصفه ، أو في ثلثه الأول ، وأذكر أنّ الوقت كان شديداً البارد ، رأيت رجلاً يرتدي ثياباً رياضية ويجري ، قلت : في الشام أكثر من خمسة ملايين ، كلهم إلى جانب المدافئ ، والمقاعد الوثيرة ،

ويتناولون الطعام الطيب ، أو غير الطيب ، مع أهلهم وأولادهم ، وهذا يجري بهذا البرد !! .



ليس من السهل أن تملك إرادة تقوى بها ، على عاداتك ، على مألوف حياتك ، على أن تركز إلى الدفاء ، إلى بيتك ، مع أولادك ، أن تأكل ما تشتهي ، هذا يركض في وقت شديد البرودة ، وفي وقت يألّف الناس أن يقبّعوا في بيوتهم .

قلت :

متى نشأت عنده هذه الإرادة الحديدية؟
متى غلب نوازع نفسه الطبيعية ؟

متى قوي على نفسه ؟

هنا السؤال متى ؟

لماذا تسع وتسعون في المائة من الناس يركنون إلى عاداتهم ، إلى طبيعة أجسامهم ، إلى الراحة ، إلى الدفاء ، إلى الكسل العضلي .

ولماذا هذا يجري في هذا الوقت ؟

ما الذي دفعه ؟

ما الذي قوى إرادته ؟

ما الذي جعله يتميز من بين مئات الألوف ؟

بل من بين عشرات الألوف أو بضعة الملايين .

هذا لو أنه اطلع اطلاعاً واسعاً على ما في علم الطب من أنّ : القلب إذا صلح صلح الجسد كله ، وإذا فسد فسد الجسد كله ، وأنّ هذا القلب يقويه الجري ويضعفه الكسل ، وأنّ الإنسان إذا أهمل قلبه ، عانى في خريف عمره أشياء كثيرة ، يبدو أنّ هذا الشاب الذي يجري في هذا الوقت ، وفي هذه الظروف القاسية ، يبدو أنّ علمه واطلاعه كوّنا عنده الإرادة القوية .

فدرسنا كله في فكرتين :

إذا كان هناك فرق كبير بينما أنت عليه وبينما يجب أن تكون عليه ، هذه المسافة الكبيرة سببها ضعف الإرادة ، وضعف الإرادة سببها نقص العلم ، إذا :

العلم هو الطريقة الوحيدة إلى الله ، إذا ازداد علمك قويت إرادتك ، إذا قويت إرادتك وصلت إلى ما تصبو إليه .

فهذا ملخص الملخص ، قبل أن نبدأ بالتفاصيل ، لماذا تضعف عن أن تكون كما تريد ؟ لأنّ علمك بما تريد يحتاج إلى مزيد .

ضربت مثلاً واحداً ، أما أنتم : لكم أن
تضربوا عشرات الأمثلة .

يعني أعرف رجلاً يُقبل على الطعام
الدهم إقبالاً عجباً ، وله مركبة
يستعملها لمسافة مائة متر ، كسل ونهم
وطعام دسم ، في الثانية والثلاثين توفي
، طبعاً هذا الجسد له قوانين ، طبعاً مع
الاحتفاظ بعقيدتنا بأن لكل إنسان أجلاً لا
يتقدم ولا يتأخر ، ولكن الله عز وجل



جعل لكل شيء سبباً ، لكن هذا الإنسان إقباله على الطعام الدهم ، وإقباله على استعمال مركبته
بشكل دائم ، وعزوفه عن أن يبذل جهداً من ضعف إرادته ، وضعف إرادته بسبب نقص علمه
بقواعد هذا الجسم .

نحل بهذا الدرس مشكلة كبيرة ، كلما تأقت نفسك إلى أن تكون في مستوى أرقى مما أنت فيه ،
اعلم علم اليقين أن هذا يعود إلى ضعف إرادة فيك ، وهذه الإرادة ضعفت لنقص العلم الذي
تحويه ، كلما ازددت علماً ازددت إرادة ، وكلما ازددت إرادة بلغت المستوى الذي تصبو إليه ،
عالج نفسك .

هذا الدرس ، درس هذا المسجد له طبيعة خاصة ، كيف أن الجسد له قوانين ، وله أساليب ، وله
علل ، وله أدواء ، وله أسباب ، وله مسببات ؟ كذلك النفس .

الإرادة :

الآن :

نبدأ بالدرس ، قال تعالى :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ
وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

[سورة الأنعام الآية : ٥٢]

﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾

إذا : هناك من يريد وجه الله ، والذي يريد وجه الله اسمه مُريد ، وأكثر علماء القلوب يسمون
تلاميذهم مُريدين ، معنى مُريد : يعني أراد وجه الله ، أراد الله ورسوله .

قال تعالى :

﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ * وَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾

[سورة الليل الآية: ١٩-٢١]

هذه الآية الثانية المتعلقة بالإرادة .

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

[سورة الأحزاب الآية: ٢٩]

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾

هنا المشكلة ، ماذا تريد ؟ هذا أكبر سؤال

هناك من يريد الدنيا من خلال الدين ...

هناك من يحضر مجالس العلم ليزداد دخله ، ليكثر زبائنه ...

هناك من يحضر مجالس العلم ليتعلم أشياء يتصدر بها المجالس ...

وهناك من يريد الله ورسوله .

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

تعريف الإرادة :

أورد لكم طائفة من تعاريف علماء القلوب بالإرادة أو بالمريد .

الإرادة : مُطلقة .

المريد : من أراد الله ورسوله .

الإنسان بلا علم ، بلا توجيه ، بلا مجلس علم ، بلا مُرشد ، بلا مشرب ديني ، بلا تزويد ، إنسان له جسد ، له شهوات ، له مطالب ، غالباً يستجيب لشهوات جسمه ، غالباً يركن للراحة ، يعني من الطبيعي جداً أن تُصلي الصبح بعد الشمس ، ما دام جسمك مستريحاً في الفراش ، هذا الجسد يتمنى أن يبقى نائماً ، وهذا الجسد يتمنى أن يقبع في البيت لا أن يأتي إلى مجلس علم ، وهذا الجسد يتمنى أن يأكل كثيراً ، وهذا الجسد يتمنى أن تكون له زوجة كما يشتهي ، فالإنسان دون علم ، دون مجلس علم ، دون توعية ، دون اطلاع ، دون معرفة ، ينساق مع شهواته . فقال : الناس غالباً يُعرجون على أوطان الغفلة ، ويجيبون دواعي الشهوة ، ويخلدون إلى أرض الطبيعة ، ومن أراد الله ورسوله ينسلخ عن كل ذلك . هذا أول تعريف .

الصلاة ذكر ، وإذا كان الإنسان منسجماً في عمله ، لا يتمنى أن يُصلي ، إذا كان منسجماً ، يقوم بعمل رائع ، له أجر كبير ، يتمنى أن يبقى بلا صلاة ساعات طويلة ، فالإنسان دون علم ، دون معرفة ، ينسجم مع عمله فلا يُصلي ، ويبقى نائماً فلا يُصلي الفجر ، ويأكل دون حساب ، ويمزح ، ويتكلم ، وينهش أعراض الناس ، ويغتاب ، كل هذا انسجاماً مع غفلته .

تعريف آخر للمريد الصادق .

من هو المريد ؟ الذي يريد الله ورسوله .

تعريفه : نهوض القلب في طلب الحق .

هذا الحُطِيئة هجا أحد زعماء القبائل ، اسمه : الزبيرقان ، قال له بيتاً ، يُعَدُّ الآن شعاعاً كلِّ إنسان، ظاهر معناه مديح ، قال له :

دع المكارم لا ترحل لبُغيثها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

أما باطنه فهجاء مقذع ، ما لك وما للمكارم ؟ أنت مُطعمٌ ، مكسو ، اقبع في البيت ، كُل ، اشرب ، وتترزه ، واسهر ، واسمر ، والتق مع من تُحب ، وامزح ، وافرح ، ما لك وللمكارم ؟ دع المكارم ، أما الذي يُريد الله ورسوله قَلِقٌ دائماً ، لا يُطمئنهُ إلا أن يرضى الله عنه ، قَلِقٌ دائماً ، لا يُطمئنهُ إلا أن يشعر أن الله يُحبه ، لذلك : نهوض القلب في طلب الحق ، هذا تعريفٌ آخر من تعريفات المُريد .

تعريفٌ ثالث : لوعةٌ تُهَوِّنُ كلَّ روعة .

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامرٌ وبينى وبين العالمين خراب

إذا صح منك الوصل فالكل هين وكل الذي فوق التراب تُراب

هذا الذي يُريد الله ورسوله ، يهونُ عليه كلُّ صعب ، يسهلُ عليه كلُّ مُحال ، يبتغي مرضاة الله عزَّ وجل بأيِّ ثمن .

قال بعضهم : المُريد من كان في قلبه لوعةٌ ، ولذعةٌ في فؤاده ، وغرامٌ في ضميره ، وانزعاجٌ في باطنه ، ونيرانٌ تتأججُ بين جوانحه ، هذا هو المُريد .
المُريد يقشعرُ جلده إذا ذُكِرَ الله ، يجلُّ قلبه ، تتهمرُ دموعه ، يُحبُّ الله .

ليس لك حجة :

أقول لكم مراراً وتكراراً ، هو الذي خلقكم من نفسٍ واحدة ...

النفوسُ جميعها مهيأةٌ لأن تعرفَ الله .

النفوسُ جميعها مهيأةٌ لأن تُحبَّ الله .

النفوسُ جميعها مستعدةٌ لأن تكونَ ممن سَعَدَ بِقُرْبِ اللهِ عزَّ وجل .

لكن مرةً ثانية وثالثة : نقصُ العِلْمِ يؤدي إلى ضعفِ الإرادة ، وضعفُ الإرادة يؤدي إلى وجودِ مسافةٍ كبيرةٍ بين ما أنت عليه وما ينبغي أن تكونَ عليه .

أنا أظنُّ أن أكثرَ المؤمنين في قلبه لوعة ، يتمنى أن تكونَ صلاته أفضلَ مما يُصلي ، يتمنى أن يكونَ صيامه أفضلَ مما هو يصوم ، يتمنى أن يكونَ حجه أفضلَ مما شعرَ في الحج ، يتمنى أن تكونَ صدقته أكبر ، أكثرَ وأشدَّ إخلاصاً ، يتمنى أن يكونَ وردُه في صحوةٍ لا في غفلة ، يتمنى

من أن تكون استقامته من أعلى مستوى ، ما دام هناك شعور بالتقصير ، فليعلم الإنسان علم اليقين : أن هذا التقصير مبعثه إلى ضعف الإرادة .

لي صديق زار أحد أقربائه في المستشفى ، وقد أُجريت له عملية جراحية في رنتيه ، بسبب الدُخان ، قال له : حينما أُخرج من المستشفى ، لي حسابٌ عسيرٌ مع هذه الدخينة ، يعني هذه السيكارة ، لكنّ مرضه كان عُضالاً ، ولم يسمح له هذا المرض أن يَخْرُجَ من المستشفى ، مات .



امتلاك الإرادة القوية بعد فوات الأوان غير مجد

حينما كان يدخن سنواتٍ طويلة ، وهو على مستوى رفيع من الثقافة ، لماذا ضَعُفت إرادته عن أن يُقْلَعَ عن التدخين؟ لأنه لم يُعَين أضرار التدخين، أما حينما دخل إلى المستشفى، واستؤصلت أجزاءً كبيرة من رنتيه ، بسبب المرض الخبيث ، عندئذٍ امتلك إرادةً حديديةً ، يعني يتمنى أن يُمزَقَها ، عبرَ عن هذه الإرادة : أنه إذا خرجَ من

هذه المستشفى ، فله معها حسابٌ عسير ، ولكنّ المرضَ العُضال ، لم يسمح له أن يخرجَ من المستشفى ، إذاً : لاحظ متى قويت إرادته؟ حينما رأى المرضَ الخبيثَ منتشرًا في رنتيه ، عندئذٍ امتلكَ إرادةً قوية .

أبدأً : لاحظ نفسك ، حينما يُعاني الإنسان من آلامٍ في كليتيه آلامٍ مُبرحة ، وقد يكون من عُشاق الشاي ، يشرب في اليوم عشرين كأساً ، تراه فجأةً يُقْلَعَ عنه ، نحنُ كُنّا نرجوك أن تُقَلِّلَ منه ، لم تكن ترض ، أما حينما ذاقَ آلامَ الكليتين ونوبات الحصىات ، عندئذٍ ألقَ عنه .

بقيَ الفرق بين أن تملكَ الإرادةَ بعدَ فوات الأوان ، وبين أن تملكها في الوقت المناسب ، لا بدَّ من أن تملكها بعد أن تدفعَ الثمن ، أما البطل هو الذي يملكها بالعلم لا بالتجربة ، لا بدَّ من أن تملكَ إرادةً قوية ، إما أن تملكها بعد أن تدفعَ الثمنَ باهظاً ، وبعدَ فوات الأوان ، وعندئذٍ لا تستفيد من هذه الإرادة القوية ، وإما أن تملكَ الإرادة القوية ، بسببِ العلم الذي تحصله وأنت في مُقْتبل العمر ، هذا هو الفرق .

قال بعض العلماء :

من صفات المرید أنه يتحبب إلى الله
بالنوافل ، بصلاة نافلة ، بصوم نفل ،
بتلاوة قرآن ، بذكر كثير ، وصدقة
كثيرة ، الذي يتحبب إلى الله بالنوافل ،
هذه صفات في المرید .

والمرید أيضاً :

هو الذي يأنس بالخلوة .



من صفات المرید أنه يتحبب إلى الله بالنوافل

هناك شخص يقول لك : اجتماعي ، لا يستطيع أن يجلس وحده أبداً ، يجلس وحده ، يشعر
بالوحشة ، والاستئناس بالناس ، كما يقول بعض العلماء : من علامات الإفلاس .

أما المرید الصادق له مع ربه خلوات ، وله مع ربه جلوات ، يأنس إذا جلس وحده في الغرفة ،
يذكر الله ، يأنس بتلاوة القرآن .

ذكرت البارحة في درس الأحد : أن غار حراء ، الشاب القوي المتين ، مفتول العضلات ، لا
يستطيع أن يصل إليه ، إلا بساعات طويلة مع الجهد الشاق ، يمكن أن تصل إليه بساعتين أو
بثلاثة ، ولكن أن تستطيع أن تنام هناك وحدك في الليل ، والأرض كلها أفاعي وعقارب ، قلت :
ما الذي جعل النبي عليه الصلاة والسلام يقبع في هذا الغار الليالي ذوات العدد ؟ إن أنسه الشديد
بالله ، طغى على وحشة المكان ، وإذا كنت مریداً صادقاً مع الله ، ربما شعرت بهذا الشيء ، كلما
ازداد قُربك ازداد أنسك ، وإذا ازداد أنسك بالله عز وجل ، غلب على وحشة المكان .
من علامة المرید الصادق ...

أنه يأنس بالخلوة ، ويؤثر أمر الله تعالى على كل شيء ، ويستحيي من نظر الله إليه ، يستحيي
أن ينظر الله إليه في حالة لا ترضيه ، ويبدل جهده في ابتغاء مرضاة الله ، ويتعرض لكل سبب
يوصل إليه .

يا ترى : بحفظ القرآن ؟

يا ترى : بخدمة الصالحين ؟

يا ترى : بالدعوة إليه ؟

يا ترى : بالتواضع ؟

يا ترى : بماذا ؟

كُلَّمَا بَلَغَهُ أَنَّ هَذَا الطَّرِيقَ يُوَصِّلُ إِلَى اللَّهِ سَلَكَهُ .

كُلَّمَا سَمِعَ أَنَّ هَذَا الْعَمَلَ يُقَرِّبُ فَعَلَهُ .

كُلَّمَا دَرِيَ أَنَّ هَذَا الشَّيْءَ إِذَا ابْتَعَدَ عَنْهُ يَقْتَرِبُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، يُبَادِرُ فَيَبْتَغِدُ عَنْهُ .
وَالْقَنَاعَةُ مِنْ صِفَاتِ الْمُرِيدِ الصَّادِقِ ، يَقْنَعُ بِمَا قَسَمَهُ اللَّهُ لَهُ ، دَائِمًا الْمُرِيدُ صَابِرٌ ، وَقَنُوعٌ ،
وَرَاضٍ ، وَالَّذِي يُرِيدُ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ، دَائِمًا لَجُوجٌ ، وَنَاقِمٌ ، وَسَاخِطٌ ، وَقَلْبُ الْمُرِيدِ لَا يَقَرُّ إِلَّا إِذَا
وَصَلَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، يُتَلَجُّ قَلْبُهُ أَنْ يَرْضَى اللَّهُ عَنْهُ .



المريد من كان نومه غلبة

وقيلَ : المرید من كان نومه غلبة .

وقيلَ : المرید من كان نومه غلبة .

يعني النوم عنده حينما تنهار أعصابه

ينام ، حينما يغلبه النوم ينام ، أما أن

يجعل النوم أحد متع الحياة ، يهيب نفسه

للنوم ، ينام نوماً عميقاً ، ليس هذا من

علامات المرید ، والدليل :

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾

[سورة السجدة الآية: ١٦]

قالَ : المرید من كان نومه غلبة ، وأكله فاقة ، وكلامه ضرورة ، هذا الذي يُريد الله ورسوله .
لأحد العلماء كلمة خطيرة ، قالَ : من لم تصحَّ إرادته ابتداءً ، فإنه لا يزيده مرور الأيام إلا
إدباراً .

يعني إذا الإنسان في بداياته لم يُرد الله ورسوله ، كلما مرت الأيام تزيده بُعداً ، وسأماً ،
وضجراً ، ومللاً ، وكسلاً ، وانصرافاً ، إلى أن ينقطع عن الله عزَّ وجلَّ .

يعني إذا بدأت طريق الإيمان ، بدائته غير صادق ، ما صحت إرادتك في طلب الحق ، إذا بدأت
الإيمان لطلب الدنيا ، تجد أن الأيام كلما مرت أبعدتك ، جعلتك تسأم ، يقول لك : والله مللنا
كلاماً ، سمعناه كثيراً ، تجده يُصلي متكاسلاً ، يصوم متأففاً ، يحجُّ تاجراً ، يذكرُّ لاهياً ، يُسبحُ
غافلاً ، يقوم بالواجبات شكلاً ، صورةً ، عباداته جوفاءً ، تلاوته عرجاءً .

وقال بعضهم : المرید إذا سمع شيئاً من علوم القوم ، سمع شيئاً فعمل به ، صار حكمةً في قلبه
إلى آخر عمره .

يعني مثلاً :

سَمِعَ أَنَّ أَمْرَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ تَغْضَبَ بِصَرْكَ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ ، هَذَا تَوْجِيهِ إِلَهِي ، فَغَضِبَ بِصَرْهِ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ ، فَشَعَرَ بِحَلَاوَةٍ مَلَأَتْ قَلْبَهُ ، صَارَ هَذَا حَكِيمًا ، لِأَنَّهُ مُجَرَّبٌ ، سَمِعَ التَّوْجِيهَ نَظْرِيًّا ، وَطَبَّقَهُ عَمَلِيًّا ، فَشَعَرَ بِحَلَاوَةٍ فِي قَلْبِهِ إِلَى آخِرِ عَمْرِهِ ، يَقُولُ : أَنَا فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا ، وَشَعَرْتُ بِكَذَا وَكَذَا .

سَمِعَ أَنَّهُ مَا تَرَكَ عَبْدٌ شَيْئًا لِلَّهِ ، إِلَّا عَوَّضَهُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ فِي دِينِهِ وَدُنْيَايِهِ ، سَمِعَ بِهَذِهِ الْحِكْمَةَ ، فَعَرَضَتْ لَهُ الدُّنْيَا مَعَ شُبُهَةٍ ، فَتَرَكَهَا ، وَازْوَرَّ عَنْهَا ، وَابْتَعَدَ عَنْهَا ، فَأَتَاهُ اللَّهُ خَيْرًا مِمَّا فَقَدَهُ ، صَارَ حَكِيمًا ، صَارَ بِالتَّعْبِيرِ الْحَدِيثِ : صَاحِبَ تَجْرِبَةٍ ، صَارَ صَاحِبَ خَيْرَةٍ ، صَارَ يُعَايِنُ كَمَا قَالَ الْعُكْبُرِيُّ : الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ تَوَخَّذُ الْفَاطِظُ مِنَ حَفَاطِهِ ، وَتَوَخَّذُ مَعَانِيهِ مِمَّنْ يُعَانِيهِ ، صَارَ فِي مَعْنَاهُ .

قال : وَإِذَا تَكَلَّمَ هَذَا الْحَكِيمُ ، الَّذِي سَمِعَ مِنْ كَلَامِ الْقَوْمِ ، فَطَبَّقَهُ ، فَقَطَفَ ثِمَارَهُ ، فَذَاقَ طَعْمَهُ ، فَصَارَ حَكِيمًا ، الْآنَ إِذَا تَكَلَّمَ بِهِ ، انْتَفَعَ بِهِ مِنْ سَمِعِهِ ، وَقَدِيمًا قَالُوا : الْكَلَامُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الْقَلْبِ ، يَدْخُلُ إِلَى الْقَلْبِ بِلا اسْتِئْذَانٍ ، وَالَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الْفَمِ لَا يُجَاوِزُ الْأَذَانَ .

متى يمكن أن ينتفع الناس بكلامك ؟

إِذَا اسْتَمَعْتَ أَنْتَ إِلَى الْحَقِّ ، وَطَبَّقْتَهُ ، وَقَطَفْتَ ثِمَارَهُ ، لَمَسْتَ فَوَائِدَهُ ، فَتَكَلَّمْتَ عَنْ تَجْرِبَةٍ . انْتَهَيْتَ إِلَى مَكَانٍ جَمِيلٍ ، وَعَايِنَ الْمَكَانَ ، وَسُرَّ بِهِ سُرورًا عَظِيمًا ، وَعَادَ إِلَى بَلَدِهِ ، الْآنَ : إِذَا ذَكَرَ لَكَ مَذَاقَ مِنْ مُتَعَةٍ وَسُرورٍ ، يَنْقُلُ لَكَ شَعورَهُ ، تَشْتَهِي أَنْتَ أَنْ تَذْهَبَ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ . إِذَا وَصَفَ لَكَ الْوَاصِفُ ، وَكَانَ وَصْفُهُ عَنْ تَجْرِبَةٍ حَقِيقِيَّةٍ ، يَنْقُلُ لَكَ كُلَّ شَعورِهِ ، فَإِذَا قَالَ لَكَ : وَاللَّهِ أَنْصَحُكَ أَنْ تَذْهَبَ إِلَى مَكَانٍ كَذَا فِي قِضَاءِ إِجَازَتِكَ ، تَسْأَلُهُ : هَلْ ذَهَبْتَ إِلَيْهِ ؟ يَقُولُ : لَا وَاللَّهِ ؛ لَكِنْ هَكَذَا وَصَفُوهُ لِي ، تَبْقَى أَنْتَ فَاتِرِ الْهَمَةِ ، لِأَنَّ كَلَامَهُ لَمْ يَنْتَقِلْ إِلَيْكَ مَعَ الشُّعورِ . قَالَ : وَإِذَا تَكَلَّمَ بِهِ انْتَفَعَ بِهِ مِنْ سَمِعِهِ ، وَمَنْ سَمِعَ شَيْئًا مِنْ عُلومِ الْقَوْمِ ، وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ ، كَانَ حِكَايَةً يَحْفَظُهَا أَيَّامًا ، ثُمَّ يَنْسَاهَا .

مر معنا بعلم التربية ...

أَنَّ أَسْوَأَ أَنْوَاعِ التَّعْلِيمِ هُوَ التَّعْلِيمُ اللَّفْظِي ، تُقَدِّمُ لِلطَّالِبِ آلاَفَ الْمَعَانِي فِي الْفَاطِظِ ، لِأَنَّ الطَّالِبَ لَمْ يَعِشْ هَذِهِ التَّجَارِبَ ، لَمْ يَعِشْ هَذِهِ الْحَقَائِقَ ، سَمِعَهَا بِأَذْنِهِ ، إِذَا أَدَّى بِهَا امْتِحَانًا ، حَفِظَ الْكِتَابَ كَلِمَةً كَلِمَةً ، وَأَدَّى بِهِ امْتِحَانًا .

أنا أقول لكم هذا الكلام المضحك ...

الطلاب الذين ينجحون في الشهادات ، لو دُعوا إلى تقديم الامتحان نفسه بعد عام ، لرسبوا جميعاً ، لماذا ؟ لِأَنَّ التَّعْلِيمَ لَفْظِي ، هَذِهِ الْمَعْلُومَاتُ حَفِظُوهَا ، فَلَمَّا جَاءَ الْامْتِحَانُ ، كَتَبُوهَا ، لِأَنَّهَا

لم تكن عن تجربةٍ ، ولا عن إحساسٍ ، ولا عن خبرةٍ ، لكن لاحظ نفسك : إذا عانيتَ تجربةً لا تنساها حتى الموت ، يمضي عليها ثمانون عاماً وأنتَ تذكرها ، لذلك أرقى أنواع التعليم : التعليم عن طريق الخبرات والتجارب .

سمعت ببعض بلاد الغرب ، المهندس يذهب إلى الحقول ، في مساعدة كبار المهندسين ، طالب هندسة لا يدخل إلى قاعة التدريس ، قبل أن يمضي ستة أشهر مع المهندسين ، يرى الطبيعة ، يرى الإسمنت ، يرى البناء كيف ينشأ ؟ يرى هذه الألفاظ .



أرقى أنواع التعليم عن طريق الخبرات والتجارب

يعني : فرقٌ كبير بين واحد مثلاً لم ير البحر إطلاقاً ، قرأ مقالة عن البحر ، ورأى صورة عن البحر ، وقرأ قصيدة عن البحر ، هل أنا يا بحر منك لست أدري ؟ قرأ قصيدة عن البحر ، ونظر إلى صورة عن البحر ، هذا البحر عنده فكرة ، قرأها ، ينساها ، أما لو أن هذا الإنسان ذهب إلى البحر ، وسبح فيه ، وكاد يغرق ، وشعر أنه كاد يموت ، لولا أحداً أنقذه في آخر لحظة ، هذا يعرف ما البحر ؟ وما معنى موج البحر ؟ وما معنى ملوحة البحر ؟ يعرفها ، تجربة لا ينساها أبداً .

أما الآن : لو أن إنساناً فرضاً ، ما أُتيح له أن يذهب إلى البحر ، وقرأ مقالة عن البحر ، أسأله بعد ثلاثة أيام ماذا تذكر منها ؟ يقول لك : لا شيء ، وإذا ذكرَ بالمائة خمسون ، وبعد أسبوعين لا يذكر شيئاً ، هذا التعليم اللفظي ، أما لو أخذناه إلى البحر ، وسبح فيه ، وذاقَ طعمَ ملوحته ، ورأى الأسماك فيه ، وركبَ متنَ البحر ، وشعرَ بالموج ، وانزعَ قلبه خوفاً ، وكاد يغرق ، هذه التجارب لا ينساها حتى الموت .

فإذا كانت معلوماتك بالدين كأن تقرأ مقالة عن البحر ، وأنتَ ما عرفتَ البحر ، وما رأيتَ البحر ، ولا سبحتَ في البحر ، ولا ذُقتَ طعمَ البحر ، ولا أوشتَ على الغرق فيه ، فكلُّ معلوماتك سطحية وسرعان ما تنساها .

لذلك : تؤخذ ألفاظه من حفاظه ، وتؤخذ معانيه ممن يُعانيه ، أما إذا كان لك مع الله تجربة ، إذا ذُقتَ طعمَ القربِ فعلاً ، إذا ذُقتَ طعمَ الاستقامة ، إذا ألقى الله في قلبك السكينة ، إذا شعرتَ براحة الإيمان ، إذا شعرتَ بأنَّ الله يُحبك ، إذا أنفقتَ من مالكَ فاتاك الله عشرة أمثال ، إذا أثرتَ مرضاة الله عزَّ وجل فعوضك الله خيراً مما فقدك ، كلُّ حديثٍ شريف ، وكلُّ آيةٍ كريمة تُطبِّقها

وتتطف ثمارها ، أنت الآن داعية أصبحت ، لأنك إذا تكلمت ، تركت أثراً عميقاً في نفوس الناس ، إذا دعوت إلى الله ، وعبرت عن خبراتك الإيمانية ، فعلت في نفوس الناس فعلَ السحر ، لأنك تتحدث عن تجربة ، دعوا في أذهانكم مقالة البحر ، مقالة حفظها ، قصيدة حفظتها ، صور تأملتها ، وأنت لم تره إطلاقاً .

لذلك : أحد الشعراء وصفَ مُدعيَ التصوف ، قال :

خاضوا بحار الهوى دعوى وما ابتلوا

يعني : الإنسان كأس ماء ، ماء حقيقي لو وضعها في جيبه ، لسال الماء إلى الأرض ، يُعقل أن يخوض بحراً دون أن يبذل ؟ كأس ماء واحد يملؤه بللاً ، ويخوض بحراً ولا يبذل ؟! هذه الدعوى :

خاضوا بحار الهوى دعوى وما ابتلوا .

فالذي أتمناه على كل أخ منكم ، إذا أراد أن يدعو إلى الله ، إياه أن ينطلق من معلوماتٍ سمعها ، أو من أفكارٍ نقلت إليه ، أو من كتاب قرأه ، إن فعلَ هذا لا يستطيع أن يؤثر في إنسان ، أما إذا كانت له مع الله تجربة ، إذا كانت له مع الله أيام ، إذا كانت له مع الله أحوال ، إذا كان قد أثر جانب الله ، إذا كان قد ترك شيئاً لله ، إذا ذاقَ طعمَ القرب ، إذا ذاقَ حلاوةَ الحب ، إذا كان كذلك ، نقول له : عندئذ ادع إلى الله ، كلامك عندئذ يفعل في الناس فعلَ السحر ، وقد وُصِفَ النبي عليه الصلاة والسلام بأنه ساحر وليس بساحر ، لشدة قوة تأثيره من الناس ، من أين جاءت قوة التأثير ؟ من المعاناة ، من الحب الذي امتلأ في قلبه .

ومن سمع شيئاً من علوم القوم ولم يعمل به ، كان حكايةً ؛ يحفظها أياماً ثم ينساها .

أنا حينما كنت في التدريس ، كنت أطلب من طلابي ، في أولِ درسِ النقي بهم ، أقول لهم : هناك وظيفة ، اكتبوا لي حدثاً بارزاً في حياتكم وقعَ فعلاً ، حينما أتلقى الوظائف ، أجدُ العجبَ العجاب ، لأن الطالب إذا تكلم عن مأساة عاناها ، أو عن شيء ملأ قلبه فرحاً ، يُصبحُ أديباً ، أسلوب قوي ، معاناة ، عاطفة صادقة ، فكلُّ طالبٍ حينما ينطلق في كتابته من تجربةٍ حقيقية ، من مأساة ، من حدثٍ مُفرح ، يُصبحُ في مستوى أدبيٍّ أرقى بكثيرٍ من مستواه الأصلي ، لأن جوانحه وعواطفه وخبراته كلها تضافرت على إنجاز هذا الموضوع ، لذلك يبقى لكل طالبٍ في ذهني صورة .

وقال يحيى بن معاذ : أشدُّ شيء على المرید معاشرَةَ الأضداد ، إذا كنتَ فعلاً مُريداً صادقاً ، أصعبُ شيء في حياتك ، أن تُضطرَّ أن تُرافقَ إنساناً بعيداً عن الله عزَّ وجل ، تشمئز من مزاحه ، ومن حركاته ، ومن سكناته ، ومن نظراته ، ومن تعليقاته ، ومن ملاحظاته ، أنت نقيٌّ كالثوبِ الأبيض ، وهو قدرُ أسودِ الثوبِ ، الذي امتلأ من المياه الآسنة والوحولِ القذرة ، أما إذا أقمتَ علاقاتٍ حميمةً مع أناسٍ بعيدين عن الله عزَّ وجل ، وأحببتهم ، أثرتَ صحبتهم ، أمضيتَ معهم وقتاً ممتعاً ، فهذه علامةٌ خطيرةٌ جداً على أنك بعيدٌ عن الإيمانِ بُعداً كبيراً .

يعني : أَيْعَقَلُ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْحَمَامِ ، وَقَدْ تَأَلَّقَ جَسَدَكَ ، وَارْتَدَيْتَ أَجْمَلَ الثِّيَابِ ، وَأَنْظَفَهَا ، وَأَشْدَهَا عَطْرًا ، وَأَنْ تَمَرَّ عَلَى أَنْاسٍ ، يَسْبَحُونَ فِي مَاءِ آسَنِ أَسْوَدَ ، وَرَوَائِحَ هَذَا الْمَاءِ ، تَزَخُمُ الْأَنْوْفِ ؟ أَيْعَقَلُ أَنْ تَتَمَنَّى أَنْ تَكُونَ مَعَهُمْ وَأَنْتَ بِهَذِهِ النِّظَافَةِ ؟ لَا يُمَكِّنُ ، أَنْتَ فِي نِظَافَةٍ ، وَفِي طَهْرٍ ، وَفِي عَطْرِ ، وَفِي نِقَاءٍ ، وَفِي صَفَاءٍ ، وَهُمْ فِي قَذَارَةٍ ، وَفِي دَنَسٍ ، وَفِي رَجْسٍ ، وَفِي نِجَاسَةٍ .



إذا ألفت أهل الدنيا وأحببتهم فأنت منهم

لذلك : إِذَا أَلَّفْتَ أَهْلَ الدُّنْيَا ، وَأَحْبَبْتَهُمْ ، وَضَحَكْتَ لِمُزَاحِمِهِمْ ، وَأَيْسَتْ بِقُرْبِهِمْ ، وَأَمْضَيْتَ مَعَهُمْ سَاعَاتٍ طَوِيلَةً ، فَاعْلَمْ عِلْمَ الْيَقِينِ ، أَنَّكَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ ، وَأَنَّكَ لَا تَنْتَمِي إِلَى الدِّينِ إِطْلَاقًا ، إِنَّمَا هُوَ ادِّعَاءٌ فَارِغٌ ، أَمَا إِذَا شَعَرْتَ أَنَّكَ لَا تَحْتَمِلُ أَنْ تُضَيَّ سَاعَاتٍ طَوِيلَةً مَعَ أَهْلِ الدُّنْيَا ، مَعَ أَهْلِ الْإِعْرَاضِ ، مَعَ أَهْلِ الْفِسْقِ وَالْفُجُورِ .

والله الذي لا إله إلا هو مزحةٌ رخيصةٌ ، إِذَا سَمِعَهُ الْمُؤْمِنُ ، يَكَادُ يَخْرُجُ مِنْ جِلْدِهِ ، مِنْ شِدَّةِ التَّأْدِي ، بَيْنَمَا تَجِدُ أَنْاسًا آخَرِينَ ، يَنْتَوِنَ مِنَ الضَّحِكِ ، يَهْتَرُونَ نَشْوَةَ لِهَذَا الْمُزَاحِ ، عَلَامَةُ إِيمَانِكَ : أَنَّ هَذَا الْمُزَاحَ الْأَخْلَاقِي ، الْقَدْرَ ، تَأْبَاهُ نَفْسِكَ ، إِنْ رَأَيْتَ إِنْسَانًا مُتَلَاعِبًا كَذُوبًا ذَكِيًّا ، إِنْ أُعْجِبْتَ بِهِ فَأَنْتَ مِثْلُهُ ، أَمَا إِذَا احْتَقَرْتَ خِدَاعَهُ وَنِفَاقَهُ وَانْحِطَاطَهُ فَأَنْتَ مُؤْمِنٌ ، لِذَلِكَ : لَا بَدَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ مَتَمِيزًا عَنْ أَهْلِ الدُّنْيَا .

أشدُّ شيءٍ عَلَى الْمُرِيدِ : مُعَاشَرَةُ الْأَضْدَادِ مِنْ كَانُوا ضِدَّهُ فِي السُّلُوكِ ، لِلْمَوْضُوعِ تَتَمَّةٌ رَائِعَةٌ جَدًّا ، يَقُولُ :

الْمُرِيدُ الصَّادِقُ أَيَّةُ حَرَكَةٍ يَتَحَرَّكُهَا فِي الدُّنْيَا ، يَزِينُهَا بِمِقْيَاسٍ وَاحِدٍ ، هَلْ تُقَرِّبُهُ مِنَ اللَّهِ أَمْ تُبْعِدُهُ ؟ حَتَّى تِجَارَتُهُ ، حَتَّى حِرْفَتُهُ ، حَتَّى مِهْنَتُهُ ، حَتَّى حَرَكَتُهُ وَسُكُنَاتِهِ ، حَتَّى نِزَاهَتُهُ ، حَتَّى إِجَازَاتِهِ ، حَتَّى كُلِّ حَرَكَاتِهِ ، إِنْ كَانَتْ حَرَكَتُهُ تُبْعِدُهُ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَفْعَلُهَا ، إِذَا : فِي كُلِّ نَشَاطَةٍ يَقْصُدُ وَجْهَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، لِذَلِكَ : إِلَهِي أَنْتَ مَقْصُودِي وَرِضَاكَ مَطْلُوبِي .

قَالَ : لَا بَدَّ مِنْ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءٍ حَتَّى تَبْلُغَ مَا تَرِيدُ أَيُّهَا الْمُرِيدُ ؛ لَا بَدَّ مِنْ نَفْسٍ مُسْتَعِدَّةٍ قَابِلَةٍ ، وَالنَّفْسُ لَا تَسْتَعِدُّ وَلَا تَقْبَلُ إِلَّا إِذَا تَعَلَّمَتْ ، إِذَا : الْعِلْمُ هُوَ الطَّرِيقُ الْوَحِيدُ ، وَلَا بَدَّ مِنْ دَعْوَةٍ مُسْتَمْعَةٍ ، أَنْتَ نَفْسٌ مُسْتَعِدَّةٌ ، وَدَعْوَةٌ حَقِيقِيَّةٌ صَحِيحَةٌ ، أَسَاسُهَا الْحَقُّ ، أَسَاسُهَا الْعَدْلُ ، أَسَاسُهَا الْوَاقِعُ ، أَسَاسُهَا الْفِطْرَةُ ، أَسَاسُهَا الْمَنْطِقُ ، وَلَا بَدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ الطَّرِيقُ خَالِيًا مِنَ الْعَوَاقِقِ ، فَإِذَا أَزَلَّتِ الْعَوَاقِقُ ،

ووفقتَ إلى دعوةٍ صحيحةٍ، وكُنْتَ مستعداً لقبولِها ، بسببِ العلمِ الذي تعلمتهُ ، صارَ الطريقُ إلى الله سالكاً والوصولُ محققاً .

آخرُ فكرةٍ في الدرس : هو أنّ المریدَ تتناهُ حالتانِ أساسيتان ؛ حالةُ القبضِ وحالةُ البسطِ ، الحقيقةُ : القبضُ يأتي من الخوفِ والبسطُ يأتي من الرجاءِ ، القبضُ لسببين ؛ إما لتقصيرٍ ، أو لمعصيةٍ ، أو لتركِ حقوقٍ لا تؤدي ، وهذا السببُ يقتضي التوبةَ والتصحيحَ ، وإما أن لا يدري المریدُ لهذا الانقباضِ سبباً ، عندئذٍ عليه أن يصبرَ ، فلعلَّ في هذا حكمةً تتضحُ له بعدَ حينٍ ، وأما البسطُ يشعرُ بنشوةٍ ، بإقبالٍ ، بمعنوياتٍ مرتفعةٍ جداً ، هنا منزلقٌ أن يتيهَ على الناسِ بهذا الحالِ ، أن يُعجبَ بنفسهٍ ، أن يرى نفسهُ فوقَ الناسِ ، عندئذٍ ينزلقُ من هذا الحالِ المريحِ إلى حالٍ أخرى لا تُرضي الله عزَّ وجل ، فإذا جاءَ الانقباضُ ، فابحثَ عن السببِ ، فإن عرفتَهُ فُتَبْ منه ، وإن لم تعرفهُ فاصبرَ على حكمةِ الله عزَّ وجل حتى ينجليَّ الموقفُ ، وإن جاءَ الانبساطُ ، فإياك أن يستخفَّكَ الانبساطُ ، فتقعَ في زهوٍ ، أو في كبرٍ ، أو استعلاءٍ على الناسِ ، وعندئذٍ تكونُ قد امتحنتَ ورسبتَ في الامتحان .

ملخصُ المُلخصِ : يجبُ ألا يُخرجكَ البسطُ عن الاستقامةِ ، ولا أن يُخرجكَ البسطُ أيضاً على أن لا تكونَ أديباً بينَ يدي الله عزَّ وجل .

الخاتمة :

هذه لمحةٌ سريعةٌ عن منزلةِ الإرادةِ ، أُلخصها بكلمتين : إذا كانَ بينما أنتَ فيه ، وبينَ ما تتمنى أن تكونهُ مسافةٌ كبيرةٌ ، فاعلم أن هذا بسببِ ضعفٍ في إرادتكِ ، وضعفُ الإرادةِ في الأصلِ نقصٌ في العلمِ .

عُدنا : إلى أنّ العلمَ هو الطريقُ الوحيدُ إلى الله عزَّ وجل ، وما من طريقٍ إلى الله إلا طريقُ العلمِ .

فإذا أردتَ الدنيا فعليكَ بالعلمِ ، وإذا أردتَ الآخرةَ فعليكَ بالعلمِ ، وإذا أردتهما معاً فعليكَ بالعلمِ ، والعلْمُ لا يُعطيكَ بعضهُ إلا إذا أعطيتَهُ كُلَّكَ ، فإذا أعطيتَ بعضكَ لم يُعطِكَ شيئاً ، ويظلُّ الإنسانُ عالماً ما طَلَبَ العلمَ ، فإذا ظنَّ أنه قد علِمَ فقد جهلَ .

والحمد لله رب العالمين